تاريخ نشوء علم السكان ومنزلة ابن خلدون منه

الدكتور عبد الكريم اليافي

يتألف هذا البحث من قسمين : يعرض القسم الاول مراحل نشوء هذا العلم كما يتصور الغربيون ويبرز القسم الثاني **سبق ابن خلدون** الى هذا الميدان بايضاحه علاقات العامل السكاني بجملة « متغيرات » اقتصادية وحضارية وثقافية الى جانب اعتماده هذا العامل مقياسا فى دحض بعض المزاعم التاريخية .

(١)

عقدت بباريس صيف ١٩٦١ الدورة الثالثة عشرة لمعهد الاحصاء العالمي بحث خلالها بعض العلماء الديمغرافيين تاريخ ميلاد علم السكان فنسبوا انشاءه الى التاجر الانكليزي جون غرونت John Graunt وبعد امد نشر بوريس اولانس احد الاساتذة فى معهد الاقتصاد باكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفياتى مقالا فى مجلة بريد اليونسكو بعنوان « ميراث جون غرونت » (١) تحدث فيه عن ميلاد ذلك العلم . لنتعقب اولا ملامح هذا المقال . يرى مؤلفه من الصعب معرفة تاريخ ميلاد علم من العلوم معرفة دقيقة تامة ، اذ يكون غالبا مبعثرا او مطويا فى غياهب الماضي السحيق . ولكنه يستثنى من هذا التعميم علم السكان او « الديمغرافية » اذ اعتبر العلماء الحديثون كانون الثانى سنة ١٦٦٢ تاريخ ميلاد ذلك العلم حين نشر جون غرونت احد رجال الاعمال فى لندن كتابا بعنوان « ملاحظات طبيعية واجتماعية حول لوائح الوفيات

Natural and political observation made upon the Bills of Mortality.

(السياسى Political هنا بمعنى اجتماعى)

فكان هذا السفر اول عمل علمي في مجال الديمغراطية • ويكون قد مضى على نشوء هذا العلم ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة •

لقد عكف ذلك التاجر فى ساعات فراغه جالسا قرب موقده ليلا على دراسة كشوف اسبوعية بالوفيات الواقعة فى لندن • ومن دراسته تلك وتحليله نجم ذلك الكتاب • وكان لغرونت صديق جميم هو وليم بتي William Petty عمد الى بعض الحسابات في هذا النطاق ، والف كتابا بعنوان « الحساب الاجتماعى » "Political Arithmetic" فدفع هذا الكتاب تلك البحوث بعض الخطوات الى الامام • لقد وجد بتى ان ثلاثة آلاف وفاة كانت في اكبر مستشفي بباريس من وراء سوء تنظيمه • هذا ولا احد بمعصم من الخطأ •

فقد اعتبر بيتى ان سكان لندن سوف يستمرون فى الازدياد حتى سنة ١٨٠٠ فقط • ولكن مجرى التاريخ اظهر خطل حكمة اذ ازداد اهالى لندن ثمانية اضعاف فى خلال مائة وخمسين سنة تلت ذلك التاريخ •

وجرى على آثارها فى هذا المضمار الفلكى الانكليزى ادموند هلي Edmund Halley • فاعتمد الاحصائية المتوافرة فى مدينة برسلاو Breslau (التب اصبح اسمها اليوم فركلو Wroolaw) فأنشأ سنة ١٦٩٣ اولى جداول وفيات • وقد نشرتها له الجمعية الملكية التي تأسست عام ١٦٦٠ وهي اقدم الجمعيات العلمية فى انكلترة •

ثم انتقلت هذه البحوث الى اليابسة باوروبة ابان القرن الثامن عشر ، حيث اهتم بها العلماء من مختلف الاقطار • فقد الف الاسف زسملش Süssmilch في جند فريدريك الكبير كتابا سنة ١٧٤٢ بعنوان « العناية الالهية في تطور النوع البشرى
Die Gottliche ordnung in den Veraderung des Menschlichen Geschlechts
وسلك نهجه فى فرنسة ديبارسبو Deparcieux وموهر Moheau

وفي ذلك العهد ظهرت تباشير علم السكان في روسية على يد ميخائيل لومونوسوف ذى الفكر الموسوعي • فلقد كان فيزياويا وكيماويا وشاعرا وجغرافيا واقتصاديا واحصائيا • انما عرض آراءه في قضايا السكان خلال رسالة كتبها فى ١ تشرين الثانى سنة ١٧٦١ الى صديقه الكونتشلافالوف خدن البراطورة اليزابت • أبان فيها مختلف العوامل التى تؤثر في السكان فتكبح نموهم ووصف التدابير التى تستطيع أن تحول دون ذلك الكبح ، وأشار فى رسالته من خلال تلك العوامل الى تفاوت اعمار الزوجين والى ارتفاع وفيات الرضع والى اثر ادمان الخمور فى ارتفاع معدل الوفيات عامة كما أشار الى قضية الهجرة من روسية واعتبر النازحين بمثابة « جثث ميتة » • وبحوثه هذه تدخل فى نطاق السياسة الديمغرافية •

وفي أواخر القرن الثامن عشر ظهر في انكلترة كتاب صغير اغفل مؤلفه اسمه فيه بعنوان « بحث فى مبدأ السكان » وازن صاحبه فيه بين ازدياد القوت او ما ندعوه الثروة في العصر الحاضر وتكاثر النوع الانسانى وخلص الى ان فقر الفقراء ناجم عن غريزة الانسال لا عن سوء النظام الاقتصادي والسياسى القائمين اذ ذاك • مؤلف هذا الكتاب الذى راج رواجا كبيرا هو القس الانكليزى توماس مالتس ، فوسعه واعلن اسمه وطبعه عدة مرات •

ثم جاء الباحث البلجيكى كيتلى Quételet فى القرن التاسع عشر فوطد دعائم الاحصاء عامة ، ومع انه لم يكن ركنا بارزا فى الرياضيات فقد توفق الى تطبيق حساب الاحتمال والاحصاء على القضايا الانسانية من ولادات و زواج ووفيات وغيرها •

وكان تعداد السكان قد اصبح امرا يزاوله بعض الدول مزاولة دورية منتظمة (اول تعداد جرى فى السويد سنة ١٧٤٩ وكانت تشمل فنلنده ولكن التعداد الدورى المنظم بدأ فى الولايات المتحدة الاميركية منذ سنة ١٧٩٠ كل عشر سنوات ، وفى بريطانية منذ سنة ١٨٠١ ، وفى بروسية منذ

١٨١٠ ، وفى النمسا والمجر منذ ١٨١٨ وهلم جرا •) وكذلك توطدت دوائر ضبط النفوس واحصاء الاحوال المدنية في مختلف البلاد • فقدم كل ذلك مادة غزيرة للعلماء الحديثين الذين توالوا وتعاقبوا في هذا الميدان•

ومن المعلوم ان الباحثين اعتادوا ان يطلقوا على هذا النوع من دراسات السكان لفظ « الديمغرافية » كما سلف • واول من استعمل هذا اللفظ المفكر الفرنسي آشيل غيار Achille Guillard سنة ١٨٥٥ فى كتابه المسمى « مبادىء الاحصاء البشرى او الموازنة في الديمغرافية • ,,Eléments de sttistique humaine ou démographie comparée

وكان الباحثون قبلا يقولون احصاء السكان ومن الواضح ان لفظ الديمغرافية مؤلف من عنصرين يونانيين Demes ومعناه الشعب و Graphein ومعناه الوصف •

واريد تغيير هذا اللفظ المتضمن معنى الوصف ، فاستبدل به لفظ الديمولوجية Démologie اشارة الى الناحية العلمية فى هذه الدراسات فلم يتح لهذا اللفظ الانتشار ولا البقاء •

ولما اتى العالم الاجتماعى اميل دركهايم Emile Durkheim قسم علم الاجتماع اقساما عدة ، وجعل من هذه الاقسام بحثا اطلق عليه لفظ « المرفولوجية الاجتماعية » "Morphologie sociale" او علم التشكل الاجتماعى يتناول موضوعه اشكال المجتمعات وارتباط السكان بالارض وتوزعهم عليها وخصائصهم الديمغرافية والهجرة الداخلية والخارجية وسبل المواصلات وانماط المساكن وما تعلق بذلك • ولا يخفى ان هذا القسم عند المدرسة الاجتماعية الفرنسية واسع تدخل فيه المباحث التى يدل عليها لفظ الديمغرافية • وكان امام علماء الاجتماع ان يختاروا احد اللفظين الاخيرين دفعا للبس واختصارا للمصطلحات • وقد آثر موريس هلفكس Maurice Halbwachs وهو من اتباع دركهايم المقتفين لآثاره

لفظ المرفولوجية الاجتماعية على الديمغرافية • وحجته في ذلك ان تعبير دركهايم يتضمن معنى العلم ، ولفظ الديمغرافية يفيد الوصف المحض ، وكتب كتابا وسمه بعنوان « المرفولوجية الاجتماعية » يبحث اغلب فصوله قضايا السكان من توزع على الارض واعمار وجنسي ذكور واناث وولادات وزواج ووفيات وهجرة وما الى ذلك متقيدا فيه بالمنهج الدركهايمى •

وانشأ بعض علماء الاجتماع الامريكيين امثال ردريك د • ماكنزى Roderick D . Mackenzie دراسات اجتماعيـــة دعوها الايدلوجيـــة البشرية Human écology ولفظ الايكولوجية فى علم الاحياء يفيد دراسة علاقة الكائن الحي ببيئته • فاطلق هذا اللفظ بالتوسع على دراسة النظم الاجتماعية وعلاقتها بتجمع السكان وبيئاتهم • ويدخل هذا الاعتبار كثيرا من هذه البحوث فيما يريده دركهايم من لفظ المرفولوجية الاجتماعية •

وهكذا يبدو ان لفظ المرفولوجية الاجتماعية اوسع واعم من لفظ الديمغرافية حتى اطلق بعض الباحثين على دراسة السكان وقضاياهم من حيث الزواج والمواليد والاعمـــار والوفيات والهجرة لفظ المرفولوجيـــة الديمغرافية •

وشاع اصطلاح الاحصاء الحيوى Vital statistics فى اللغـــة الانكليزية ، وهو يقابل فى الفرنسية Statistique de l'état civil ويعنى ضبط الاحوال المدنية وتطبيق الطرق الاحصائية عليها • وثمـــة فى الانكليزية لفظ آخر وهـــو Civil registration له الدلالة نفسها •

على ان لفظ الديمغرافية غدا اشيع هذه المصطلحات فى هذا المجال • وقد اصبحت الديمغرافية في العصر علما يتسع نطاقه شيئا فشيئا ، ويشمل على فروع عدة ، نذكر منها :

١ ـ انسـاب الناس •

٢ ـ التعداد اى جمع احوال السكان الشخصيـة والاقتصاديـة والثقافية والصحية وغيرها ، وتقوم به الحكومات عادة •

٣ ـ ضبط الاحوال المدنية كالولادات والزواج والطلاق والمرض والوفيات والهجرة وامثالها وتطبيق الطرق الاحصائية عليها •

٤ ـ المسموح السكانية ، وهي طرق تعتمد (عينات) جزئية تختار بين السكان للحكم على المجموع ومعرفة بعض خصائصه •

٥ ـ القياسات الحيوية التى تتناول بالدراسة والرموز نمو الانسان وخصائصه من قوة وقامة وابعاد جمجمة وتركيب دم وتعمـير وتعـرض للامراض وما الـى ذلك •

٦ ـ تسجيل الامراض الانسانية ، وتقوم دوائر الصحة والمشـافى وشركات الضمان وامثالها ودراسة احتمال التعرض لهـا •

٧ ـ بحوث تحسين السلالات الانسانية وقضايا الوراثة المتعلقة بها •

٨ ـ الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية والثقافية والنفسية المرتبطة بما سلف ذكره •

(٢)

لقد عرضنا عرضا يكاد يكون وافيا تاريخ نشوء الديمغرافية ومراحل توطدها في العصر الحديث • ويجب ان نشير اول الامر الى اننا نجـد شذرات متفرقة من تلك الفروع فيما كتبه الاقدمون من يونان كافلاطون في « الجمهورية » وارسطو فى « السياسة » ومن مؤلفين عرب عدة • ومن المعروف ان العرب كانوا يعنون بالانساب وتسجيلها وانهم انتبهوا للعوامل المؤثرة فى نمو السكان وتنقلهم ووفياتهم • ولكن كل ذلك كان متصـلا باعتبارات فكرية مختلفة فلسفية او دينية او حربية او غيرها ، ولم تكـن

له الصفات العلمية المتطلبة . وقد تغير الامر تماما حين جاء ابن خلدون ، فعالج في مقدمته التى كتبها عام ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م مختلف القضايا التاريخية والاجتماعية والادارية والاقتصادية واولى الشؤون السكانية عناية فائقة .

ولما اراد ابن خلدون فى مقدمة « مقدمته » ان يلمح ـ على حد تعبيره ـ لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام ، وينبه على وجوب تمحيص اخبارهم وان بلغوا القمة من الشهرة والذروة من الحصافة اورد مثلا على ما نقله المسعودى وكثير من المؤرخين غيره فى جيوش بنى اسرائيل من « ان موسى عليه السلام احصاهم فى التيه بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة الف او يزيدون » ثم ينقد هذه الرواية من جملة وجوه احدها عدم احتمال ذلك العدد بالقياس الى ما يمكن ان تعبئه مصر والشام . ان « لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها ، تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ... ولقد كان ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه » . ثم هنالك ايضا عدم الاحتمال لازدياد بنى اسرائيل الى هذا الحد في الفترة الواقعة بين اسرائيل وموسى . والمسعودى نفسه يروى ان قد « دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط واولادهم حين اتوا الى يوسف سبعين نفسا ، وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة » . ويبعد ان يتشعب النسل فى اربعة اجيال الى مثل هذا العدد . وكذلك يبعد ان يتشعب النسل الى ذلك الحد لو ان احصاء الجيش وقع في زمن سليمان .

ان المؤرخين العرب كالمسعودى وامثاله نقلوا معلوماتهم تلك من « العهد القديم » جاء فى الفقرة ٤٦ من الفصل الاول من سفر العدد « كان

جميع المعدودين ست مئةوثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين » (٢) وورد هذا الرقم ايضا فى الفقرة ٣٢ من الفصل الثاني من السفر نفسه •

بيد ان العهد القديم كتاب ديني • ولذلك أخذ المسعودى الخبر منه على عواهنه • ولم يعرض ابن خلدون لهذا الكتاب الذى له صفة خاصة ، وانما انتقد المؤرخين الذين لم يمحصوا الخبر من الوجهة العلمية •

ومن السهل بيان عدم الاحتمال لذلك التناسل بشتى الارقام • وقد ابان الباحثون بعد مئات السنين من عهد ابن خلدون امتناعه • جاء فى كتاب « تاريخ سكان العالم » لمؤلفيه الاستاذين رنهار وارمنغوه ما يلى (٣) « ولهذا كان اولئك الذين فحصوا كشوف اعداد السكان بمجموعها او على الاصح عدد القادرين على حمل السلاح مما جاء فى التوراة استغربوا جواز احتمالها • فالكشوف تستلزم كون السكان يبلغ مجموعهم خمسة ملايين نسمة كسكان مصر وما بين النهرين على الرغم من ضآلة مساحة المنطقة وقلة غناها بالنسبة لذينك القطرين • ثم ان سرعة التناسل تبدو غير مقبولة فى تلك التواريخ المعروضة •

وجرى على نهج هذين الاستاذين غيوم وبوسو فى كتاب لهما حديث بعنوان « الديمغرافية التاريخية » فالحا على امتناع ارقام التوراة حين ننظر الى تاريخ البلد او المنطقة فى ذلك العصر « فذلك العدد يتضمن وجود اكثر من خمسة ملايين نسمة • وهذا غير ممكن • وقلة دقة الارقام يثبتها علم السكان نفسه لان معدل النمو اذ ذاك اسرع مما هو ممكن ، كذلك توزع الجنسين والاعمار ممتنع (٤) » •

او ليس مؤلف المقدمة في موقعه المتأمل لمدى ازدياد السكان واعتماده اياه مقياسا لدحض بعض الارقام التاريخية هو واضع حجر الاساس قبل مئات السنين فى الصرح الحديث للديمغرافية التاريخية •

ان الحياة الاجتماعية تتألف من جملة « متغيرات » واهمية ابن خلدون انه نوه بهذه المتغيرات ، وربط بينها ربطا اقرب ما يكون الى الموقف الذى تعتمده فلسفة العلوم في العصر الحاضر • وذلك ان فلسفة العلوم المعاصرة تعتبر تلك المتغيرات ذات اشتباك وتداخل على شكل « دالة » او « تابع » بالمعنى الرياضى للتابع والدالة دون ان تلح على سببية وحيدة الجانب كما فعل بعض المفكرين امثال « تارد » فى التقليد و « فرويد » فى مشكلة « الليبيدو » وغيرها •

يحبو ابن خلدون عدد السكان مكانة كبيرة ويربط بينه وبين سعة الرزق ورفاهية الناس وازدهار التجارة • فقد عقد فصلا فى « ان تفاضل الامصار والمدن فى كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق انما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة » وينبغى ان نفهم من لفظ العمران هنا عدد السكان مع كثرة الاعمال التى يقومون بها والتنظيم الذى يشملهم • ولا بد من ايراد شطر من هذا الفصل • يقول ابن خلدون ، « والسبب فى ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجياته فى معاشه ، وانهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك • والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الاكثر من عددهم اضعافا • فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه • واذا انتدب لتحصيله الستة او العشرة من حداد ونجار للالات وقائم على البقر و واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا ، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فان حينئذ قوت لاضعافهم مرات • فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم • فأهل مدينة او مصر اذا وزعت اعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاقل من تلك الاعمال ، وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات ، فتصرف في حالات الترف وعوائدة وما يحتاج اليه غيرهم من اهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضة وقيمه ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى ، وقد

تبين .... ان المكاسب انما هى قيم الاعمال ، فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمتها بينهم ، فكثرت مكاسبهم ضرورة ، ودعتهم احوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التألق فى المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب . وهذه كلها اعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة فى صناعتها والقيام عليها . فتنفق اسواق الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل اعمالهم . ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ، ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته ، واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها ، وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية ، ونفقت سوق الاعمال بها اكثر من الاول ، وكذا فى الزيادة الثانية والثالثة ، لان الاعمال الاصلية التي تختص بالمعاش . فالمصر اذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد فى الآخر . فما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال اهله فى الترف ابلغ من حال المصر الذى دونه وتيرة واحدة فى الاصناف .

ثم يقول : « واما حال الدخل والخرج فمتكافىء فى جميع الامصار . ومتى عظم الدخل عظم الخرج ، وبالعكس . ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت احوال الساكن ووسع المصر .

كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تفكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التى يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيـه » .

لقد اطلنا فى ذكر هذا النص . ويشفع لنا فى الاطالة اهميته فى الديمغرافية الاقتصادية التى تتبين العلاقة الواشجة بين السكان والاقتصاد . والاقطار عند ابن خلدون كالامصار تقدما او تأخرا بسبب العمران واتساع السكان. فهو يعقد فصلا آخر « فى ان الاقطار فى اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار » فيقول : « ان ما توفر عمرانه من الاقطار وتعددت الامم فى

جهاته وكثر ساكنه اتسعت احوال اهله وكثرت اموالهم وامصارهم وعظمت دولهم وممالكهم . والسبب فى ذلك ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما يأتي ذكره من انها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضرورات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته » ويضرب مثلا اقطارا فى المشرق وفي المغرب لعهده : « واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم واحوالهم .

واعتبر حال هذا الرفه من العمران فى قطر افريقية وبرقة (تونس وليبيا) لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت احوال اهلها ، وانتهوا الى الفقر والخصاصة ، وضعفت جباياتها فقلت اموال دولها » .

ونجد ابن خلدون فى هذا الصدد يتنبه لتفاوت اسعار المدن فى الضرورى والكمالي بتفاوت اتساعها « فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت اسعار الضرورى من القوت وما فى معناه ، وغلت اسعار الكمالي من الادم والفواكه وما يتبعها . واذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الامر بالعكس » .

وتعليل ذلك ان الدواعى تتوفر على اتخاذ الضرورى فى الامصار الواسعة وعلى تأمينه للحاجة الملحة اليه ، فيفضل وفر منه وترخص اسعاره ، على حين ان الكمالي فيها يشتد الطلب عليه فيقصر الموجود منه عن الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون له وهو قليل فى ذاته نسبيا فيقع فيه الغلاء .

وعلى خلاف ذلك « الامصار الصغيرة القليلة الساكن . فاقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه فى ايديهم ويحتكرونه ، فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه . واما مرافقهم فلا تدعو اليها حاجة لقلة الساكن وضعف الاحوال ، فلا تنفق لديهم سوقه ، فيختص بالرخص فى سعره » .

ومن المناسب هنا ان ننوه « ان ابن خلدون حين يتحدث في » حقيقة الرزق والكسب « ويشرحها يرى ان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية • فهو يقترب من نظرية ماركس في العمل والقيمة • انه يقرر ان « ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد والمقتنى منه قيمة عمله ، وهو القصد بالقيمة ، اذ ليس هناك الا العمل « وعلى هذا فان المفادات والمكتسبات كلها أو اكثرها انما هى قيم الاعمال الانسانيـة » ولا يغفل ابن خلدون دخول الضرائب في قيمة السلع فيقول •

« وقد يدخل ايضا فى قيمة الاقوات ما يفرض عليها من المكوس والمضارم للسلطان فى الاسواق وابواب المصر وللجباة فى منافع يفرضونها على البياعات لانفسهم » (٥) •

كذلك يربط صاحب المقدمة بين اتساع العمران وتقدم الحضارة ورسوخها ويولي الدولة شانا فى هذا المجال « واكثر ما يقع ذلك فى الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه فى اهلها وذلك كله انما يجيء مـن قبل الدولة » (٦) ولا شك ان المال عنصر اساسي فى هذا التقدم •

ثم ان « العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة (٧) وذلك » ان الصنائع انما تكثر فى الامصار • وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لانه امر زائد على المعاش فمتى فضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصة الانسان وهى العلوم والصنائع •ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ فى القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذى هو صناعي لفقدان الصنائع فى اهل البدو كما قدمناه •ولا بد من الرحلة فى طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها •

واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفـة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار

العلم ، وتفننوا فى اصطلاحات التعليم واصناف العلوم ، واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام » .

هذا وللدولة اعمار ، وللعمران مراحل . وهذه المرحلة متصلة بالظواهر الديمغرافيه . ان الدولة فى اول امرها اذا كانت « رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران واسبابه فتوفر ، ويكثر النسل » (٨) حتى اذا انتهت الدولة الى غايتها فى الترف والنعيم تقع المجاعات بسبب عوز الاقوات لقبض الناس ايديهم عن الفلح للعدوان في الاموال والجبايات وللفتن كما يكثر الموتان بسبب المجاعات انفسها والفتن والازدحام وانتشار الامراض (٨) .

اما قضية الازدحام وانتشار الامراض فهذا صحيح . لقد كان معدل الوفيات لامد قريب فى الريف بحيث تنبسط الحقول وتشتبك الغابات اقل منه فى المدن . بيد ان الامر قد انقلب فى عقود السنين الثلاثة الاخيرة ، فاصبح فى المدن اقل منه فى الارياف بوجه عام او لاعمار معينة (٩) .

ذلك ان احوال المدن فى العصر الحاضر قد تغيرت عنها في غابر الدهر . فقد أتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنت مرافق الحياة وجرت المياه النقية الى البيوت وانتشرت النظافة واخذت الهيئات المسؤولة تبذل جهودها فى تنظيم الخطط المناسبة لانشاء المدارس والحوانيت فى افضل الاحوال المريحة .

وقد نبه ابن خلدون قديما على ان تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات وياتي بالهواء الصحيح ، ولهذا ايضا فان الموتان يكون فى المدن الموفورة العمران اكثر من غيرها بكثير » (٨) .

ان ذكر ابن خلدون لفظ مخالطة الحيوانات التي كانت مطايا الركوب لعهده ينبغي ان نستبدل به فى عصرنا مخالطة السيارات وما تنفثه فى الجو من بقايا المحروقات . واذا كان معدل الوفيات قد تبدل فى العصر الحاضر فنقص بالمدن عنه بالريف فلقد كان ذلك العالم العربى حريصا على الاحتياط والتنبيه الى اختلاف الاحوال حين كتب فى مقدمة « مقدمته » هذه الفقرة الرائعة « وذلك ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على مر الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك يقع في الآفاق والاقطار . »

واما المجاعات فيهمنا هنا من بعض اسبابها التي ذكرها ابن خلدون الاسراف فى العناية بزراعة ما ليس فيه ليس فيه فائدة غذائية للشعب المزدحم لنترك هذا المؤلف يتحدث ايضا فيقول: «وهذا معنى ما يقول بعض اهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب . حتى ان كثيرا من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور ، وليس المراد ذلك ، ولا انه خاصية فى النارنج وانما معناه ان البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة . ثم ان النارنج والليم والسرو وامثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة اذ لا يقصد بها في البساتين الا اشكالها فقط ، ولا تغرس الا بعد التفنن فى مذاهب الترف . وهذا هو الطور الذى يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه . ولقد قيل مثل ذلك فى الدفلي . وهو من هذا الباب ، ان الدفلي لا يقصد بها الا تلون البساتين بنورها ما بين احمر وابيض وهو من مذاهب الترف (١٠) يمكن مقايسة هذه الاراء الاخيرة المتعلقة بزراعة الارض ما لايغذى بما جاء عند فريق من الاقتصاديين الغربيين ، نختار منهم اقتصاديا طريفا هو اوتو افرتز

لقد ارتكز هذا الاقتصادى الحديث الى قول المفكر الانكليزى وليم بتي الذي مر ذكره والذى عاش فى القرن السابع عشر وهو « ان العمل ابو الثروة والارض امها » فاعتبر ان « الانسان يتغذى من التراب » وان « الانسان يأكل ترابا » على حد تعبيره . وحقا تندر السلع الغذائية التي لا تأتى من الارض .

فاستهلاك الخيرات التي تعتمد خاصة على الارض ولا ينفع استهلاكها الناس انما هو « تحطيم لارواح بشرية « على حد دعواه ، اذ لو لم تستهلك تلك الخيرات فى تربية خيل السباق مثلا او حدائق التجميل لعاشت بها الناس فاستهلاكها يحرمهم من الوجود . وهنا تنجلى بعض العبارات المستغلقة التي يوردها اوتو افرتز فيقول مثلا : « ان الاسرة المتأنقة التي للزوج فيها رياضته وللزوجة زينتها لتزرع الموت والاستعباد بين طائفة من الكائنات الانسانية » (١١) .

وهكذا تتفهم موقف ابن خلدون في الحكم على المغالاة فى ترف المزروعات التجميلية عند ازدحام الشعب فى اكتمال الحضارة ووقوع المجاعات .

الخلاصة

والخلاصة انه لبيان مكانة ابن خلدون قد تفيد مقارنته ولو لماما بآخرين من المشاهير في هذا الميدان .

لقد شاع اسم مالتس فى عالم الاقتصاد والسكان . وهو الوجه المنيف فى مراحل نشوء هذين العلمين . رأى هذا القس الانكليزى ازدياد النوع البشرى أشد من ازدياد الثروة،كما رأى الارتباط حتميا بين هذين المتغيرين ورد على مبادىء غودوين الاشتراكية وعلى مزاعم كندورسي المتفائلة في تطور الانسان وادعى ان القوانين الثابتة للطبيعة البشرية تجعل من المتعذر تخليص طبقات المجتمع الدنيا من نير الفاقة . فلاح كتابه لا يدعو الى الفلاح ، وكانه نعيب غراب على شرفات جدران المدنية .

وفي المقابل نجد ابن خلدون اكثر نفعا فى تفهم عناصر المجتمع واوسع اتباعا لمختلف « التغيرات » الاجتماعية وارجح موقفا فى بيان العلاقات المتطورة بينها واصدق تحديدا لمعالم الحضارة واكد تمييزا لمقاييسها وذلك فى سياق بحثه للحوادث التاريخية والظواهر الانسانية • وانه لمن الظلم لابن خلدون على تقدم عهده ان يوازن بينه وبين مالتس واشباهه او ليس جديرا بعد ما قدمناه ان يعتبر مؤلف المقدمة واضع الحجر الاساسي في الديمغرافية الاقتصادية ايضا ان لم نقل فى الديمغرافية كلها •

لقد ترجمت مقدمة ابن خلدون منذ امد الى بعض اللغات الاجنبية • وعلى هذا ليس صحيحا انه من السهل الحسم بتاريخ ميلاد الديمغرافية كما فعل بعض الباحثين ، بل انه من الضرورى الانتباه للتراث الحضارى الانساني اجمع لا الى جزء ضئيل وضيق منه • ولما كانت الديمغرافية تهتم بالاعمار وجب ان نصحح لها عمرها •

وهكذا يكون ميلادها الحقيقي مقرونا بميلاد مقدمة ابن خلدون قد مضى عليه خمسمائة وثمان وتسعون سنة لا ثلاثمائة وثلاث عشرة •

المصادر والمراجع

(١) Boris Ourlamis, Le Courrier, Unesco, février, 1967.

(٢) نحافظ هنا على طريقة كتابة العهد القديم . وهي طريقة اهل الكوفة فى كتابة الرقم ١٠٠ .

(٣) Marcel R. Reinhard et André Armengaud, Histoire de la pulation mondiale, Ed, Montohrestien, 1961, p. 26.

(٤) Pièrre Guillaume et Jean Poussou, Démographie historique Librairie A. colin, 1970, p. 39.

(٥) اعتمدنا فى ايراد نصوص المقدمـة طبعة الاسـتاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي وقد ذكر الاستاذ التحريف الكبير الذى اصاب هذه الجملة فى « فصل اسعار المدن » اذ وردت وابواب الحفر والحياة . ولكن المحقق صححها على النسخة الخطية التيمورية . هذا ونرى ربما كان الاصـل « وابواب الخفر والجباة » والخفر هو الحراسة .

(٦) فصل فى ان الحضارة فى الامصار من قبل الدول

(٧) عنوان فصل فى المقدمة

(٨) فصل فى وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات.

(٩) انظر فى بيان ذلك كتابنا « فصول فى المجتمع والنفس » ص ٩٧ ، ٩٨.

(١٠) فصل فى ان الحضارة غاية العمران

(١١) Otto Effertz, Théorie ponophysiocratique de la population
Revue d'Econo mie politique, 1914
وانظر ايضا
Pierre fromont, D emographie Economique Payot 1974
وكتابنا فى علم السكان جامعة دمشق ١٩٥٩ .

